Coptology
ϩⲁⲛⲱϣ ⲛ̀ⲣⲉⲙⲛ̀ⲭⲏⲙⲓ

الشيطان، الحيَّة القديمة، دائماً ما يأخذ أشكالاً جديدةً

دكتور
جورج حبيب بباوي

٢٠١٦

www.coptology.org

يقول رسول الرب معلمنا القديس بطرس: "اصحوا واسهروا لأن إبليس خصمكم كأسدٍ زائرٍ يجول ملتمساً مَن يبتلعه هو" (١بط ٥: ٨).

ليس الشَّرُّ قديماً فقط، بل هو أيضاً دائماً جديد. والشيطانُ، الحيةُ القديمة ليس قديماً فقط، بل هو دائماً جديدٌ، يخترع الكلام والأوصاف، فيجعل العقل لا يكفُّ عن الدوران، بل يظل في متاهة الفكر إلى ما لا نهاية. وكما يأخذ الشيطان شكلَ أسدٍ، يمكنه أيضاً أن يتخفى في شكل فكرةٍ، يصيغها في عبارةٍ قد تبدو منطقية فيبتلعها أحدهم، ومن ثمَّ يحاول هذا سكبها في عقول آخرين، فيباعد بينهم وبين خلاصهم بالمسيح يسوع ربنا.

هكذا تأخذ الحية القديمة شكلاً جديداً، فتهاجم اتحادنا بالثالوث القدوس، بإنكار الشركة في الطبيعة الإلهية، بمقوله أن الشركة في الطبيعة الإلهية تحول الإنسان إلى إله غير محدود موجود في كل مكان، وأن الشركة في الطبيعة الإلهية هي نوعٌ من الشرك الذي يحاربه الإسلام. ولأن ذلك غير صحيح، بل وغير منطقي، فقد تجد هذه الحجة طريقاً إلى البعض، وتضيع عليهم حياهم الأبدية. ولأنه يريد أن يحرم الإنسان من خيرات الثالوث، ينكر حلول روح الله فينا، فتختبئ الحية الجديدة في "الحلول المواهبي". ولأنه يريد أن يحرمنا من شركتنا في الحياة الأبدية وعدم الفساد، يمرر ذلك بالقول بأننا لا نتناول اللاهوت، بل الناسوت فقط، فاللاهوت لا يؤكل، وتتمادى الحية الجديدة، فتقول: "يؤكل ولا يؤكل".

لكل ذلك علينا أن نعي كم الخداع الذي يختفي وراء هذا المنطق المتهافت، وأن نكتشف دائماً الشكل الجديد الذي تتخفى فيه الحية القديمة، وأن نطبق وصية

رسول الرب: أن "اصحوا واسهروا لأن إبليس خصمكم كأسدٍ زائرٍ يجول ملتمساً مَن يبتلعه هو".

* * *

ولأن الحقيقة تسبق اللفظ، كما علَّمنا العظيم في القديسين أثناسيوس الرسولي بحق، أرجو أن تنتبه عزيزي القارئ إلى أن ما يأخذ حدوده بواسطة الكلام في وقتٍ ما، لا يلبث أن يأخذ حدوداً أخرى بكلامٍ آخر لا نهاية له. وأن ما يقدمه أيُّ خطابٍ عند نقطة فارقة في الزمان، ليس هو القول الفصل، فما يلبث أن يتغير إما بخداعِ اللفظ، أو بصراعٍ مع الحقائق.

والمثال الحي على خداع الألفاظ في زماننا، هو ما اتخذه الشيطان أو الحية القديمة، من شكل جديد تحت مسمى "الحلول المواهبي". والخداعُ هنا ظاهرٌ، فهناك تسليمٌ بالحلول، ولكن الثمرة، أي ثمرة هذا الحلول، هي المواهب، أما "الحياة الأبدية"، وهي العطاء الحقيقي لهذا الحلول، فقد ضاعت في متاهات اللفظ.

ولأن مكر الشيطان ظاهرٌ، فإن الحية القديمة لا تقول أنا الشيطان، وهكذا أيضاً تتخفى الحية الجديدة خلف ما هو مقدسٌ، فلا ينكر الشيطان أُلوهية الروح القدس، ولكنه يحارب الشركة في قداسة الروح القدس. فيصير الإيمان بالروح القدس مفرَّغاً من عطية ذاتية خاصة.

الحية القديمة لا تقول جهراً: ابتعد عن الروح القدس، ولكنها حديثاً تقول: لا شركة لك في الروح القدس؛ لأن هذه الشركة سوف تجعلك مساوياً لله، وهو يعلم – أي الشيطان– أن هذه المساواة مستحيلة تماماً، ولكنه يريد أن يُرعبك، ويُدخِل فيك الخوف مما قيل عن الله في العهد الجديد، في حين أن الابن له المجد عندما تجسد، لم يحترق ناسوته باللاهوت، و لم يتحول ناسوته إلى أُلوهة، بل تألَّه بالخلود والمجد وعدم الألم وعدم الفساد، وصار، ليس فقط حياً، بل محيياً أيضاً.

وإمعاناً في الخداع، تلجأ الحيةُ القديمةُ إلى النصوصَ العديدة من أسفار العهد القديم التي تتحدث عن الله كنار آكلة، وأن مَن يراه لا يعيش ... الخ. ولكن الحيَّة الجديدة تفعل العكس تماماً، إذ تتجاهل العهد الجديد، فهي لا تريد أن تقول إن "الكلمة صار جسداً"، ولا تريد أن تقول إن "الذي كان في صورة الله أخلى ذاته، وأخذ صورة العبد ووجد في هيئة البشر" (راجع فيلبي ٢ : ٦-٨)؛ لأن إنكار إخلاء الذات الإلهي هو الشغل الشاغل لدى الشيطان.

* * *

ولأن إهلاك الإنسان هو في الابتعاد عن الله، وخلاص الإنسان هو في الاتحاد بالثالوث؛ لذلك يجب إبعاد الإنسان عن الثالوث، وفي سبيل ذلك، تقدم الحية الجديدة كل الحجج التي يمكن أن ينخدع بها البسطاء، بما فيها الخطية التي قتلها الابن بالخشبة، فطالما أننا نخطئ، فلا شركة لنا مع الله. بينما الإنجيل يحرص على تأكيد محبة الله المستعلَنة في الابن الوحيد للخطاة. إلا أن إنكار أو تجاهل هذه الحقيقة الإلهية، يخدم تجدد مكر وحيل الحية القديمة.

والحية القديمة التي دُحرت وهُزمت على الصليب تأخذ شكلاً جديداً في فكرةٍ تضمنتها مقدمة رسالة دكتوراه أشرف عليها العلاَّمة مطران دمياط، تقول: إن المسيح صَلب الشيطانَ على الصليب. وهكذا يكون بولس قد صُلب مع الشيطان، وأصبح كلاهما معاً على الصليب. وكأن صلبَ الشيطانِ -بفرض صحته- أخرج الشيطان من معركة النور والظلمة، وبالتالي لم يعد الصليب هو سلاح الغلبة.

ولأن الكلام لا يصنع الحقائق، فقد تفوَّقت الحيةُ القديمة الجديدة على نفسها في تزييف الحقيقة على المفكرين. فلا مانع من تأكيد صلب المسيح، ولكن مع التعليم بأن هذا الصلب هو ثمنٌ دُفِعَ لله الآب، وبالتالي لم يعد صلب المسيح يخصُّ الإنسانيةَ إلا في إبعاد نار العدل الإلهي والغضب الإلهي عن الإنسان. وتكون المحصلة النهائية لهذا التعليم أنه قد تم فداءُ الآب من الغضب، لا الإنسان الخاطئ، وبالتالي لا داعي لدم

الرب في سر الشكر.

*   *   *

هكذا تمضي الحية القديمة لتدوس كأس الشكر تحت وطأة تلك التخرصات، وبالتالي يضيع السر المجيد.

فالشيطان لا ينكر أن سر الشكر، هو جسد الرب ودمه، فهو يعلم أن كل صلوات القداسات تؤكِّد أنه جسد ودم الرب، ولكن -في خبثٍ شديد- تقول لك الحية القديمة الجديدة: "لا، أنت تأكل الناسوت؛ لأن اللاهوت لا يؤكل"، ثم تستدرك الحية الجديدة في خبثٍ أشد: "يؤكل ولا يؤكل"، فيدخل القارئ أو المستمع في حيرة شديدة، فما يؤكل هو الناسوت، وما لا يؤكل هو اللاهوت، وبالتالي تخلص إلى القول: أنت لم تأخذ اللاهوت ولست شريكاً فيه ولا تتناوله.

وهنا نلاحظ أن الحية الجديدة تستعيد تاريخها القديم، فتُسلِّط الانتباه على "الأكل"، وهو أول الأفعال الإنسانية التي ذكرها سفر التكوين؛ لأن الانسان لا يحيا بدون طعام. ويمكننا أن نقول إن السقوط قد تم بحصول الإنسان على معرفةٍ من شجرة معرفة الخير والشر، **أي قبول الوعي الإنساني لمعرفة مزدوجة**. ولكن الحياة بذاته، يسوع المسيح الحي، **جاء ليعطي لنا ذاته: "شجرة الحياة"، وصار الأكلُ هنا "شركةً" و"تناولاً"، وليس مجرد مضغ طعام**. ولكن، ولأن الشيطان -كما نقول- شاطر، فقد نقل الشركة في الجسد الإلهي والدم الإلهي إلى ما هو بيولوجي، وهكذا تكاثرت الفتاوى عن مصير الجسد والدم بعد التناول، ما بين الأسنان، والهضم ...إلخ، وهكذا ضاع في وسط زبالة العصر الوسيط وخرافاته، **أن الجسد المحيي لا يمكن أن يعود إلى الموت، ولا أن يسود عليه الموت؛ لأن هذا إنكارٌ صريح للقيامة**.

*   *   *

ماذا يمكن أن نقول يا أحبائي أكثر من الذي قلناه؟ ولكن لكي لا نترك القارئ للحيرة تنهبه، نضع أمامه رباعية التمييز والإفراز:

أولاً: كل مَن ينكر اتحادنا بالرب يسوع في السرائر، هو خادم يخدم الشيطان الذي يسعى لأن يفصلنا عن الرب.

ثانياً: كل مَن يضع عوائقَ أمام نعمة الله الغنية، ويعلِّم بأن الإنسان يجب أن يكون مستحقاً للنعمة، وأن الاستعداد هو هذا الاستحقاق، هو مُعلِّم الكذب.

ثالثاً: كل مَن يحوِّل عمل الابن المتجسد إلى عملٍ إنساني، أو يجرده من العطاء الشخصي، مثل أن يجعل جسد الابن ودمه قابلين للموت إذا وُضِعا في الفم، أو دخلا إلى الجوف، فهو ينكر أُلوهية الرب وقيامته، ويتواقح على عطاءِ النعمة الإلهية التي تعطي الحياة الأبدية وغفران الخطايا والقيامة من الأموات، ويبشِّرُ بهلاكٍ مستتر.

رابعاً: كل مَن ينكر حلول روح الرب الأقنوم الثالث، فهو ينكر العطية الأبدية التي توحِّدُنا بالرب يسوع، باعتبار أن الروح القدس هو الذي ينير ويقود ويعلِّم ويقدِّس، بل هو الذي يجعلنا نعترف بأُلوهية الربِّ والمخلِّص (١كو ١٢ : ١-٣)، يكون متحالفاً مع الشيطان، العدو الحقيقي لروح الرب.

هذه تحذيرات لا ينكرها إلاَّ مَن كان عديم الخبرة في كلام البر، أو من كان مبشراً بالهلاك، لا بالخلاص.

الرب يسوع يحفظنا، ويديم علينا نعمة الإفراز لكي نرى النور، ولا نسير في طريق الظلمة. له المجد إلى الأبد.

د. جورج حبيب بباوي